الحديث العاشر

الأمة الواحدة


بسم الله الرحمن الرحيم

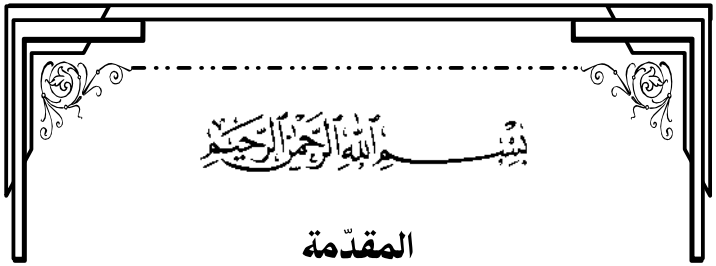
سلسلة في ظلال السنَّة

الحديث العاشر
الأمة الواحدة

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م



المقدّمة

اللَّهم إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد:**

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

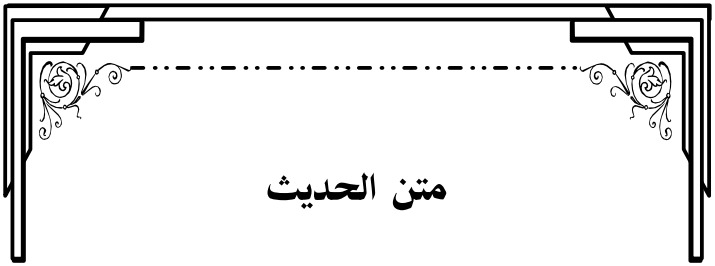
لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «**في ظلال السنّة**».

واللهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه:
الدكتور الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي
في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ٢٦/ ذي الحجة/ ١٤٣٨هـ
الموافق له ١٧/ أيلول/ ٢٠١٧م

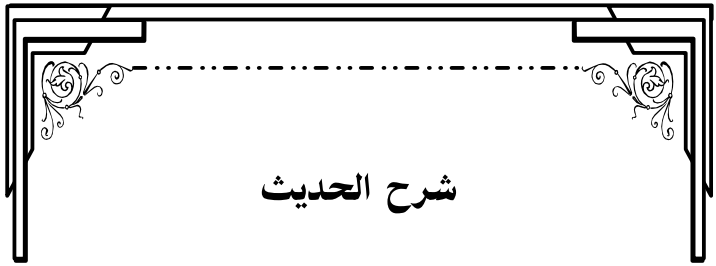


متن الحديث

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَدْ مَرَّ بِالرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيًّا، فِيهِم نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عليه السلام، حُفَاةً عَلَيْهِمُ الْعَبَاءُ، يَؤُمُّونَ بَيْتَ اللَّهِ الْعَتِيقَ**»(١).



(١) أخرجه أبو يعلى رحمه الله في «مسنده» برقم (٧٢٣١)، وحسّنه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١١٢٨)، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني، ولا بأس بإسناده في المتابعات.



شرح الحديث

هذا حديث عظيم يُخبر فيه النبي ﷺ أمّته أن سبعين نبيًّا من الأنبياء قبله قد حجّوا بيت الله العتيق، وأنهم مرّوا وهم قاصدون البيت على الموضع ذاته وهو الرَّوْحاء، وأن نبي الله موسى بن عمران عليه السلام كان أحد هؤلاء الأنبياء. كما وصف ﷺ في الحديث ما كان يلبسه الأنبياء في إحرامهم، فكانوا يرتدون العَباء، وهي نوع من الأكسية[1]، ولم يكونوا ينتعلون شيئاً بل كانوا حفاة الأقدام.

ولا يلزم من هذا الحديث أن يكون السبعون نبياً قد حجّوا معاً وفي الوقت ذاته، بل غاية ما يُفيده أنهم مرّوا على موضع واحد وهم قاصدون البيت الحرام، سواء مرّوا في الوقت نفسه أو في أوقات متفاوتة، خاصة أنه لم يُؤثَر أن نبيّ الله موسى عليه السلام قد اجتمع

(١) **العباءة والعباية**: ضرب من الأكسية، والجمع العباء والعباءات.

بهذا العدد الكبير من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، ومثل هذا لو وقع لاشتُهر وانتَشر.

كما لا يلزم من الحديث أن لا يكون قد حجّ البيت من الأنبياء سوى هذا العدد، فقد يكون حجّ البيت أنبياء آخرون ولكن لم يمرّوا في طريقهم على الروحاء، لذلك لم يُشِر الحديث إليهم.

والسؤال الآن ما هي الروحاء وأين تقع؟

قال صاحب «الروض المعطار في خبر الأقطار»: الروحاء قرية جامعة لمُزَيْنة على ليلتين من المدينة، بينهما أحد وأربعون ميلاً.

قال: وقال مالك: إذا كانت القرية متصلة البيوت كالروْحاء وشبهها لزمتهم الجمعة.

قيل: وسُمّيت الروحاء لكثرة أرواحها، وفيها ما يزعمون أنه قبر مُضر بن نزار.

قال: ومن قصيدة لأبي عبدالله بن الأبّار الكاتب ذكر فيها البقاع الحجازية، يتشوّق إليها ويتطلّب إلى ممدوحه الأمير الأجلّ أبي زكريا ملك إفريقية تسريحه إلى الحجاز:

ويـرتـاح لـلـروحـاء قـلـبـي وفـجّـهـا
إذا سـلـكـت شـعـبـاً ركـابـي أو فـجـا[١]

وقال الشيخ الجاسر في تعليقاته على (بلاد العرب): والروحاء لا تزال معروفة، بعد قرية المسيجيد للمتوجّه إلى المدينة، والسيّالة بعد الروحاء إلى المدينة[٢].



(١) «الروض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن عبدالمنعم الحميري (ج١/ ص٢٧٧).

(٢) «حاشية كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار» (ج١/ ص٢٧٧).

ذكر بعض الأنبياء الذين حجّوا

روى مسلم في صحيحه عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ، فَقَالَ: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**» فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ. قَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَار إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ**». ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى، فَقَالَ: «**أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟**» قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى. قَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي**»[(١)]. ففي هذا الحديث يذكر ابن عباس ﷺ أنه سافر مع رسول الله ﷺ وأصحابه. وأنهم مرّوا بوادي الأزرق، وهو وادٍ بين مكة والمدينة، وسُمّي بالأزرق لزُرقته، وقيل منسوب إلى رجل بعينه[(٢)]. ويقع هذا الوادي خلف قرية أَمَج، وبينه وبين مكة ميل

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٣٨).

(٢) انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للملا علي القاري (ج١٦/ ص٣٦٥).

واحد[١]. فسأل النبي ﷺ أصحابه عن هذا الوادي، فأخبروه أنه وادي الأزرق. فقال: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ**»، والثنيّة هي الطريق العالي في الجبل، والمراد أن نبينا ﷺ رأى موسى عليه السلام هابطاً من الجبل ومارًّا بوادي الأزرق، كما وضّحت رواية ابن ماجه[٢]. «**وَلَهُ جُؤَار إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»، أي وهو يلبّي بصوت عالٍ ومرتفع. ثم تابع النبي ﷺ مسيره، فمرّ بثنيّة هَرْشى. وهَرْشى ـ بفتح الهاء وإسكان الراء ـ وهو جبل على طريق المدينة قريب من الجُحفة. فَقَالَ: «**أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى. قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام، عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ**»، أي مكتنزة اللحم. **عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ**. وهنا يخطر على البال سؤال؛ وهو: معروف أن الجُبّة تُعتبر من المَخِيط، أي من الثياب المفصّلة على قَدْر الجسم، ومعلوم أن المُحرِم لا يلبس المَخِيط، فكيف يلبَسها نبي الله يونس عليه السلام وهو مُحرِم بالحج؟ قال المُلا علي القاري في جوابه: «ولعله لبسها على غير هيئة المعتاد أو كان جائزاً في شرعه للمُحرِم لبس الجُبّة

---

(١) انظر «فتح الباري» لابن حجر (ج٣/ ص٤١٤).

(٢) أخرجها ابن ماجه، وصحّحها الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١١٢٦).

ونحوها»[١]. ويقصد القاري بقوله: «**لبسها على غير هيئة المعتاد**» أي لم يُدخل يديه في أكمام الجُبّة كما هو المعتاد، بل ألقاها كما هي على كتفيه كأنها قطعة قماش غير مفصّلة. «**خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ**»، والخِطام هو: الحبل الذي يقاد به البعير ويُجعل على خَطْمه، أي: مقدّم أنفه وفمه. خُلبة: أي مصنوع من الليف. «**وهو يلبّي**».

وبقي سؤال آخر، وهو: كيف رأى نبينا ﷺ موسى ويونس عليهما السلام وهما في عِداد الأموات؟ قال ابن حجر رحمه الله في جوابه: «وقد اختلف أهل التحقيق في معنى قوله: «**كأني أنظر إلى..**» على أوجه:

الأول: هو على الحقيقة، والأنبياء أحياء عند ربهم يُرزقون، فلا مانع أن يَحُجّوا في هذا الحال. كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أنه ﷺ رأى موسى قائماً في قبره يصلي. قال القرطبي: حُبّبت إليهم العبادة فهم يتعبّدون بما يجِدونه من دواعي أنفسهم لا بما يُلزمون به، كما يُلهم أهل الجنة الذِّكر. ويؤيّده أن عمل الآخرة ذِكر ودعاء، لقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ الآية.

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (ج ١٦/ ص ٣٦٥).

لكن تمام هذا التوجيه أن يقال: أن المنظور إليه هي أرواحهم، فلعلها مُثّلت له ﷺ في الدنيا كما مُثّلت له ليلة الإسراء، وأما أجسادهم فهي في القبور. قال ابن المنير وغيره: يجعل الله لروحه مِثالاً فيُرى في اليقظة كما يُرى في النوم.

ثانيها: كأنه مُثّلَتْ له أحوالُهم التي كانت في الحياة الدنيا، كيف تعبّدوا وكيف حَجّوا وكيف لبّوا، ولهذا قال: «كأنّي».

ثالثها: كأنه أُخبر بالوحي عن ذلك، فلِشدّة قطعه به قال: «**كأني أنظر إليه**».

رابعها: كأنها رؤية منام تقدّمت له، فأخبر عنها لما حجّ عندما تذكّر ذلك، ورؤيا الأنبياء وحي. وهذا هو المعتمد عندي، لما سيأتي في أحاديث الأنبياء من التصريح بنحو ذلك في أحاديث أُخر وكون ذلك كان في المنام، والذي قبله أيضاً ليس ببعيد والله أعلم». انتهى[1]. أي: رجّح ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ الوجه الرابع، وهو: أن نبيّنا ﷺ رآهما في المنام على هذه الحال، وتذكّر الرؤيا عندما مرّ بالمكان الذي رآهما فيه، فأخبر بها أصحابه.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (ج٣/ ص٤١٥).

إذاً ورد ذكر موسى ويونس عليهما السلام فيمن حجّ من الأنبياء الكرام، كما ورد ذكر عيسى عليه السلام وأنه سوف يحجّ البيت عندما ينزل إلى الأرض.

روى مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الأَسْلَمِي قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**»(١).

قال النووي رحمه الله: «قوله ﷺ: «**ليَثنينهما**» هو بفتح الياء في أوله، معناه: يُقرن بينهما. وهذا يكون بعد نزول عيسى عليه السلام من السماء في آخر الزمان. وأما فجّ الروحاء، فبفتح الفاء وتشديد الجيم، قال الحافظ أبو بكر الحارثي: هو بين مكة والمدينة، قال: وكان طريق رسول الله ﷺ إلى بدر والى مكة عام الفتح وعام حجّة الوداع»(٢).

وورد أيضاً ذكر هود وصالح عليهما السلام فيمن حجّ من الأنبياء، إلا أنه لم يثبت ذلك عنهما. ففي حديث رواه أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَادِي عُسْفَانَ حِينَ حَجَّ قَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**»

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٠٨٩).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (ج ٨/ ص ٢٣٤).

قَالَ: وَادِي عُسْفَانَ. قَالَ: «**لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَى بَكَرَاتٍ**(١) **حُمْرٍ، خُطُمُهَا اللِّيفُ، أُزُرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهُمُ النِّمَارُ**(٢)، **يُلَبُّونَ يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ**»(٣).

وهذا الحديث لا يصح، فهو ضعيف من جهة السند، إذ ضعّفه شيخي الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الترغيب والترهيب» برقم (٧١٣). كما أنه يُضعّف من جهة المعنى أيضاً، لأن هوداً وصالحاً عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كانا قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يُبْنَ البيت إلا في زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى يديه ويدَيْ ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن البَدَهي أن يكون إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ اللذَان بنيا البيت العتيق، أي الكعبة المشرفة، قد حجّا البيت بل أوّل من حجّ البيت. وكيف لا، وقد كُلف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يفتتح بنفسه دعوة الناس إلى حج بيت الله العتيق. قال تعالى مخاطباً إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾(٤). كما أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) **بكرات**: جمع بَكْرة ـ بفتح فسكون ـ وهي: الناقة الفتيّة.
(٢) **النمار**: جمع نَمِرة، وهي: كِساء فيه خطوط بيض وسود.
(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٠٩٩).
(٤) الحج: ٢٧.

سأل ربّه أن يعلمه هو وابنَه إسماعيل مناسك الحج. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

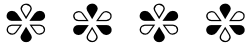
قال شيخي أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تضمّنت الآيات ذكر إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وهما يبنيان البيت برفع قواعده، وهما يدعوان الله تعالى بأن يتقبل منهما عملهما متوسّلين إليه بأسمائه وصفاته ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. كما يسألانه وَجَلَّ أن يجعلهما مسلمَيْن له، وأن يجعل من ذريّتهما أمّة مسلمة له مؤمنة به موحّدة له ومنقادة لأمره ونهيه مطيعة، وأن يعلّمهما مناسك حجّ بيته العتيق ليحجّاه على علم ويتوب عليهما[2].

وأيضا لا ننسى في الأنبياء الذين حجّوا ذكر نبينا محمد ﷺ. فقد حجّ النبي ﷺ البيت في السنة العاشرة من الهجرة، وهي حجة الوداع. وأجمع أهل العلم على أن النبي ﷺ لم يحجّ بعد الهجرة إلا هذه الحجّة. وروى

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) «أيسر التفاسير» للجزائري (ج١/ص ٥٥).

البخاري في صحيحه عن قتادة «أنه سأل أنس بن مالك رضي الله عنه: كم اعتمر النبي ﷺ؟ قال: أربع. ثم سأله كم حجّ؟ قال: واحدة»[١].



(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٧٨).

بناء البيت العتيق

ذكرنا أن الكعبة المشرفة بناها إبراهيم عليه السلام بمعاونة ابنه إسماعيل عليه السلام ولم تكن مبنية قبل ذلك. قال ابن كثير رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[1]. **قال: يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيّه وخليله، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق، الذي هو أوّل مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه. وبوّأه الله مكانه، أي: أرشده إليه ودلّه عليه. ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام. ومن تمسّك في هذا بقوله: «مكان البيت» فليس بناهض ولا**

(١) الحج: ٢٦ ـ ٢٧.

ظاهر، لأن المراد مكانه المقدّر في علم الله، المقرّر في قدرته، المعظّم عند الأنبياء موضِعُه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم. قال: وقد قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1] أي: أول بيت وُضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكّة، قيل: مكة، وقيل: محل الكعبة. فيه آيات بينات، أي: على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده، وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به ويتمسّكون بسنّته، ولهذا قال «**مقام إبراهيم**» أي: الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لَمَّا تعالى البناء وعظم الفناء، كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل.

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب ﷺ، فأخّره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت. واتُّبِع عمر بن الخطاب ﷺ في هذا، فإنه قد وافقه ربُّه في أشياء، منها: في قوله لرسوله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

(١) آل عمران: ٩٦.

وقد كانت آثار قدمَيْ الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام.

وقد قال أبو طالب في قصيدته اللاميّة المشهورة:

وثورٍ[١] ومن أرسى ثبيراً[٢] مكانه
وراقٍ ليرقى في حِراء[٣] ونازِلِ

---

(١) **ثور**: هو جبل بقرب مكة، وفيه الغار الذي اختبأ فيه النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه، حين خرج من مكة مهاجراً. وقد ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

(٢) **ثبير**: وهو جبل عظيم بقرب مِنى، ويقال بأنه أُهبط عليه الكبش الذي جعله الله فداء لإسماعيل عليه السلام. وكان قَرْنُه معلقاً على باب الكعبة إلى وقت الغرق قبل المبعث بخمس سنين، رآه كثير من الصحابة ثم ضاع بخراب الكعبة بالغرق. وتقول العرب: «أشرق ثبير كيما نُغير»، إذا أرادوا استعجال الفجر. انظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» (ج١/ ص٤٦).

(٣) **حِراء**: يُقصر ويُمدّ، ويُصرف ويُمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى مِنى، له قُلّة مُشرفة على الكعبة مُنحنية، والغار في تلك الحنية. وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حِراء في كل عام شهراً من السنة =

وبالبيت حقّ البيت من بطن مكة
وبالـلَّـه إن الله لـيـس بـغـافـل
وبالحجر المسودّ إذ يمسحونه
إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر
رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قَدْر قدمه حافية لا منتعلة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، أي: في حال قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله ﷻ، وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور. ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

= يتنسّك فيه. وكان من نُسُك قريش في الجاهلية، يُطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة. وهذا يدلّ على أن هذا كان عادة المتعبّدين في قريش أنهم يجاورون في حراء للعبادة. انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (ج١/ ص٣٩٠).

(١) البقرة: ١٢٨.

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً. فاستجاب الله ـ وله الحمد ـ له مسألته ولبّى دعوته وآتاه طِلبته، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(١). وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾(٢). وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة، لتتمّ عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى. وقد استجاب الله له، فبعث فيهم رسولاً وأيّ رسول، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤتِ أحداً قبله، وعمّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة.

وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه وكمال ما أُرسل به، وشرف بقعته

(١) العنكبوت: ٦٧.
(٢) القصص: ٥٧.

وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره وموارده.

وقد كانت ـ أي الكعبة ـ على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصّرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم. وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبدالله بن محمد بن أبي بكر أخبر ابن عمر عن عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألم تري إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم**». فقلت: يا رسول الله ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ فقال: «**لولا حدثان قومك**» وفي رواية: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية** ـ أو قال: ـ **بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر**»(١).

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ، حسبما أخبرته عنه خالته عائشة أم المؤمنين. فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين، كتب إلى عبدالملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر ـ أي

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥٠٦)، ومسلم برقم (٣٣٠٧).

عبدالملك ـ بردّها إلى ما كانت عليه. فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحِجر ثم سدّوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي وسدّوا الغربي بالكليّة كما هو مشاهد إلى اليوم. ثم لمّا بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين، ندموا على ما فعلوا، وتأسّفوا أن لو كانوا تركوه وما تولّى من ذلك.

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور، استشار الإمام مالك بن أنس، في ردّها على الصفة التي بناها ابن الزبير، فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة ـ يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد ـ فاستقرّ الأمر على ما هي عليه اليوم[1].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) «البداية والنهاية» (ج١/ ص ١٨٧).

فوائد الحديث:
الأمّة الواحدة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾[1]. ما المراد بالأمّة هنا؟ الأمّة هنا وردت بمعنى المِلّة، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن هذه مِلّتكم مِلة واحدة»[2]. أي: وإن مِلّتكم أيها الرسل جميعاً هي مِلّة واحدة لا تختلف في أصولها التي تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات، وإن اختلفت في الأحكام الفرعية.

فالمِلّة التي حملها الرسل متفقة على دعوة الناس إلى الإيمان بالله ﷻ، وأنه لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ

(١) المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢.

(٢) «تفسير الطبري» (ج١٨/ ص٥٢٣).

مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[1].
كما أنها متفقة على الدعوة إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله ﷻ للناس، دون التفريق بينهم فيُؤمَن ببعض الرسل ويُكفر بالبعض الآخر. وكذا الإيمان بالصحف والكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله إيماناً مجملاً. وكذا الإيمان باليوم الآخر، وما يتضمنه من إيمان بالبعث بعد الموت ليُجزى فيه الناس بأعمالهم التي عملوها في الدنيا، ثم يصيرون إما إلى جنّة وإما إلى نار. وكذلك مِلّة الرسل متفقة على الدعوة إلى أصول العبادات من صلاة وصوم وحج وصدقة ونُسُك، وكذا الدعوة إلى أعمال البِرّ والمُثل العليا ومكارم الأخلاق، فكل هذا مما اتّفقت عليه جميع الرسالات فيما بينها.

قال الشيخ السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «هذا أمر من الله تعالى لرسله بأكل الطيّبات، التي هي الرزق الطيّب الحلال، وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله. فدلّ هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على

(١) الأنبياء: ٢٥.

إباحة الطيّبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوّعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة. ولهذا الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدّين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبرّ، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنوّ والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دلّ على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير»[1].

إذاً الرسالة التي حملها الرسل وأُمروا بتبليغها للناس هي واحدة في جوهرها ومضمونها وأصول شرائعها، وإن اختلفت في فروع شرائعها وسننها وفق ما

(١) «تفسير السعدي» (ج١/ ص٥٥٣).

تقتضيه أحوال كل عصر واستعداد الناس فيه. ومن هنا كان كل نبيّ يوصي أمّته باتباع من يعقبه من الأنبياء فيهم، لأنهم يصدرون عن مشكاة واحدة، ويحملون رسالة واحدة في جوهرها ومضمونها. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَهْمَا آتى الله أحدَهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيّ مبلَغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنَنَّ به ولينصرَنَّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته»[2].

وروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[3].

---

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) «تفسير ابن كثير» (ج٢/ ص٦٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٣٤٢)، ومسلم برقم (٦١٠١).

فقوله عليه الصلاة والسلام: «**الأنبياء إخوة لعَلّات**»، والعَلّات هن: الضرائر، وأصله أن من تزوّج امرأة ثم تزوّج أخرى كأنّه علّ منها، والعَلَل الشّرب بعد الشّرب. والإخوة لعَلّات هم: الأخوة من أب واحد ومن أمهات مختلفة. فشبّه النبي ﷺ الأنبياء بالإخوة الذين يجمعهم أب واحد وإن اختلفت أمّهاتهم، وكذلك الأنبياء أصل دينهم واحد، وإن اختلفت فروع الشرائع فيما بينهم.

إذاً رسل الله تعالى تجمعهم عقيدة واحدة، كما تجمعهم أصول واحدة في العبادات والأخلاق والأعمال الصالحة وهذا هو معنى الأمّة الواحدة.

والحج هو أكبر عنوان تتجلى فيه معاني الأمّة الواحدة عند الرسل.

فإبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة المشرّفة، وهي أول بيت وُضع في الأرض لعبادة الله تعالى. ثم أمره الله تعالى بعد الفراغ من بنائها أن يدعو الناس إلى حج بيت الله الحرام، كما علّمه مناسك الحج ليعلمها للناس من بعده. فقام إبراهيم على مكان عالٍ ونادى: «يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجّوه». وتوافَدَت الناس وفيهم رسلُ الله الكرام عَبر القرون والأزمان يُلبّون هذا النداء، ويقولون في تلبيتهم:

«لبّيك اللَّهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». وفي هذه التلبية تجلّت معاني العبوديّة لله وحده.

فقولهم: «**لبيك اللَّهم لبيك**» هو أولاً استجابة لأمر الله تعالى وتلبية لندائه، وهذا يتضمن معنى خضوع الرسل لأمر الله وإظهار تعبّدهم له.

وثانياً هو تصديق برسالة إبراهيم عليه السلام، لأن النداء بالحج إنما بلغهم عن طريقه، وهذا يتضمن معنى الإيمان بالرسل وأنه يصدّق بعضهم بعضاً.

وقولهم: «**لبيك لا شريك لك لبيك**» هو إقرار منهم بأن الله لا شريك له، أي لا تُصرف العبادة لأحد إلا لله وحده، وهو معنى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهذا يتضمن معنى توحيد الألوهية.

وقولهم: «**إن الحمد والنعمة لك والملك**» هو اعتراف منهم بأن الله تعالى هو وحده المستحق للحمد المطلق لأن النعمة منه وحده، فكل خير وصل إليهم عن أي طريق فإنما هو من فيض كرمه ومحض عطائه. فالحمد المطلق مستحق لله وحده كما أن النعمة منه وحده، فالحمد له والنعمة له، وكذا الملك له، فكل شيء في الكون هو ملكه وحده لأنه هو الذي خلقه

وحده، ولم يُعنه أحد على خلق الخلق، وهذا يتضمّن معنى توحيد الربوبية.

ففي التلبية تجلى معنى الأمة الواحدة لدى الرسل، إذ كلهم متفقون على: أن الله تعالى هو وحده خالق الخلق ومالك الملك وواهب الرزق، وأنه لا يستحق أن يُعبد أحد من المخلوقين، لا نبي مُرسَل ولا مَلَك مقرّب، وإنما تستحق العبادة لله وحده. وأنهم على علو منزلتهم عند الله فإنهم عبيد له خاضعون لأمره يسعون في مرضاته ويُلّبون نداءه يرجون رحمته ويخافون عذابه. كما أنهم متفقون على تصديق بعضهم لبعض واقتداء بعضهم ببعض.

وفي لباسهم للإحرام تجلى معنى افتقارهم إلى الله. فرسل الله يحجّون بيت الله وهم حفاة الأقدام وعليهم ثوب واحد. وهذا يظهر مدى تضرعهم إلى الله وسعيهم في مرضاته، فهم عبيد لله طائعون لأمره ملتزمون بشرعه، يرجون رحمته ويخافون عذابه، وليسوا أرباباً مع الله كما يفتري بعض المنتسبين إليهم. كما يظهر مدى تواضعهم وزهدهم وعدم تميّزهم عن سائر الناس.

فاتفاق الرسل على التعبّد لله وحده، والافتقار إلى الله وحده، واتفاقهم العملي على الدعوة إلى مكارم الأخلاق، من زهد وتواضع، كل هذا يجلي معنى الأمة

الواحدة التي تتفق في عقيدتها كما تتفق في مكارم أخلاقها.

كما تجلى أيضاً معنى الأمة الواحدة باتفاق رسالاتهم على الدعوة إلى أصول العبادات كالحج وغيره، بل بالتشابه الكبير بينها في هذه العبادات، كالتشابه في التلبية وغيرها في مناسك الحج.



من مقتضيات الأمة الواحدة: الوحدة الشعورية

لم يكن ترابط الرسل فيما بينهم محصوراً بالتشابه القائم بينهم في جوهر رسالاتهم، بل تعدّى ذلك إلى ارتباط أخوي فيما بينهم، فهم يتحابّون ويتناصرون ويتعاطفون فيما بينهم كما يتحابّ الإخوة ويتناصرون ويتعاطفون.

فنبينا ﷺ حين مرّ على وادي الأزرق تذكّر موسى عليه السلام كيف مرّ بهذا الوادي من قبل، وبدأ يَذكُر لأصحابه شيئاً من صفاته وأعماله. قَالَ ﷺ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطاً مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَار إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»[1]، فوصفه هنا بأنه هابط من الجبل وهو يصدح بالتلبية بصوت مرتفع. ووصَفه في حديث آخر بقوله: «**كأنّي أنظر إليه وعليه عَباءتان قَطَوانيّتان، وهو مُحرِم على**

(١) سبق تخريجه في صفحة ١٣.

بعير من إبل شَنوءة، مخطوم بخِطام ليف، له ضفيرتان»[١]، فوصفه هنا بأنه يرتديٍ عباءتين قطوانيتين، أي بيضاوَيْن قصيرتين. وهو مُحرِم بالحج، وراكب على جمل من جمال شَنوءة، وشَنوءة هي قبيلة يَمَنيّة معروفة. ووصف الحبل الذي يقود به جمله، وهو الخِطام، بأنه مصنوع من الليف. كما وصف شعر رأس موسى بأنه مجموع بعضه إلى بعض في خِصلتين اثنتين متدلّيَتَيْن. ولما مرّ على ثنية هرشى تذكّر يونس عليه السلام، فقال لأصحابه: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي**»[٢]، فوَصَفَه لهم بأنه راكب على ناقة حمراء مكتنزة اللحم، وعليه جبّة صوف، والحبل الذي يقود به ناقته مصنوع أيضاً من الليف، كما وصَفه بأنه يصدح بالتلبية. فتذكُّر النبي ﷺ للرسل الكرام، واستفاضتُه في وصفهم وبيان أعمالهم ومآثرهم، وتحديث الناس بها، لا يكون إلا عن عاطفة أخويّة صادقة.

وإليكم مزيداً من الصور التي تتجلّى فيها معاني الأخوّة بين الرسل:

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (١١٢٧).

(٢) سبق تخريجه في صفحة ١٣.

الصورة الأولى: ذات مرة قال جاهل في حق نبينا ﷺ قولاً مسيئاً، فبلغ النبي ﷺ قوله، فماذا فعل؟ روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاساً فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاساً مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ. فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللَّهِ. قَالَ: فَقُلْتُ وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ. قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ[1]، ثُمَّ قَالَ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ!**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[2]. اذاً لما قسم النبي ﷺ غنائم حنين أعطى بعض الناس مالاً كثيراً، لأنهم كانوا قادة في قومهم، وكانوا حديثي عهد بإسلام، ولم يكن الإيمان قد رسخ في قلوبهم، فأحبّ النبي ﷺ أن يؤلف قلوبهم بهذا المال، عسى أن يثبت

---

(١) الصرف: هو بكسر الصاد، وهو صبغ أحمر يُصبغ به الجلود، قال ابن دريد: وقد يسمى الدم أيضاً صرفاً. كما في «شرح النووي على مسلم» (ج٧/ ص١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٣٣)، ومسلم واللفظ له برقم (٢٤٩٤).

إيمانهم وإيمان من يتّبعهم من قومهم. فرأى رجل إغداق النبي ﷺ العطاء على هؤلاء، فغاظه ذلك، لأنه ظنّ أن هؤلاء لا يستحقون، أو أنه أوْلى بهذا المال منهم، فاتّهم النبي ﷺ بالحَيْف، وقال قولاً عظيماً في حق النبي ﷺ ولكن لم يقله في حضرته. سمع ابن مسعود رضي الله عنه قوله فشكاه للنبي ﷺ. لما بلغ النبي ﷺ هذا الكلام المؤذي والمسيء، تذكّر على الحال أخاه في الرسالة موسى عليه السلام، وتذكّر كم عانى موسى من بني إسرائيل الأذى وسوء الظن وقلة الأدب، ومع هذا كان يصبر على قومه ويتحمّل أذاهم. استحضر ﷺ مقدار المرارة التي كان يتجرّعها أخوه موسى، فحملته عاطفة الأُخوّة على الترحّم عليه، كما حمله إعجابه بصبر موسى وتحمّله على الاقتداء به، فقال: «**يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِي بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**».

الصورة الثانية: روى ابن أبي الدنيا من طريق أبي سنان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن الأنصار جمعوا مالاً، فأتَوْا به النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ابنِ هذا المسجد وزيّنه، إلى متى تصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: «**ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى**»[1].

(١) قال الألباني رحمه الله «السلسلة الصحيحة» برقم (٦١٦): وهذا =

لما أراد النبي ﷺ أن يبني مسجده في المدينة، عَرَض عليه الصحابة رضي الله عنهم أن يحسّنوا بناءه، فلا يُبنى سقفه بجريد النخل حتى لا يتسرّب المطر من خلاله. كما عرضوا عليه أن يُزيّن، أي أن تُدهن جدران المسجد بشيء يُشبه الكحل. قال الإمام أحمد: قد سألوا النبي ﷺ أن يُكحّل المسجد، قال: إنما هو شيء مثل الكحل يُطلى[(١)].

فبماذا أجابهم عليه الصلاة والسلام؟ استحضر عيش أخيه موسى عليه السلام، وكيف كان بيته متواضعاً فأحبّ أن يقتدي به، فقال ﷺ: «**ليس بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى**»[(٢)].

قال المناوي رحمه الله: «أي ليس أريد مسكناً في الدنيا غير عريش مثل عريش أخي موسى من خشَبات

= الحديث غريب من هذا الوجه، كذا قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (٣/ ٢١٥)، وأبو سنان هذا اسمه عيسى بن سنان الحنفي، وهو ليّن الحديث كما في «التقريب». وجملة القول: أن الحديث بمجموع المرسَلَيْن الصحيحين وهذا الموصول يرتقي إلى درجة الحسن إن شاء الله تعالى.

(١) انظر «فتح الباري» لابن رجب (ج٢/ ص٤٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني عن عبادة بن الصامت بإسناد حسن، كما قال المناوي في «التيسير بشرح الجامع الصغير» (ج٢/ ص٦٢٧).

وسعَفات، فلا أتبوّأ القصور ولا أزخرف الدور»[١].

فاستحضار النبي ﷺ لهَدْي الرسل في كل مناسبة تَعرِض له ثم الاقتداء بهم، يدلّنا على مدى الشوق والحنين والمحبّة التي تربطه بالرسل الكرام. فهو يقتفي هَدْيهم في كل حين، ويتأسّى بهم كما أوصاه ربه . قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾[٢].

الصورة الثالثة: روى أحمد في مسنده عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَإِذَا رُمْحٌ مَنْصُوبٌ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا الرُّمْحُ؟ فَقَالَتْ: نَقْتُلُ بِهِ الأَوْزَاغَ. ثُمَّ حَدَّثَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِي فِي النَّارِ جَعَلَتِ الدَّوَابُّ كُلُّهَا تُطْفِئُ عَنْهُ إِلاَّ الْوَزَغَ**[٣] **فَإِنَّهُ جَعَلَ يَنْفُخُهَا عَلَيْهِ**»[٤].

---

(١) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (ج ٢/ ص ٦٢٧).

(٢) الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) **الوزغ**: جمع وزغة، وهي التي يطلق عليها اسم: سام أبرص، وفي العاميّة عندنا يطلق عليها اسم: أبو بريص.

(٤) رواه أحمد برقم (٢٥٨٦٩)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

إبراهيم عليه السلام لما دعا قومه إلى الله تعالى وأقام عليهم الحجة أبَوْا عليه، وصمّموا على إلقائه في نار عظيمة أوقدوها له عقوبة على تكسيره لأصنامهم واستخفافه بها. ولما نفّذوا فيه وعيدهم وألقوه في نارهم تلك، وتركوه فيها وقتاً طويلا للتشفّي منه، أقبلت الحيوانات تدافع عنه وجعلت تسعى في إطفاء النار عنه، ما عدا حشرة صغيرة صارت تنفُخ على النار حتى تزيد في اشتعالها، وهذه الحشرة هي الوزَغة.

فنبينا صلى الله عليه وسلم لما علم بالوحي تفاصيل ما جرى مع إبراهيم عليه السلام، وما فعلته الحيوانات في التخفيف عنه، وما فعله الوزغ في الإضرار به، غضب صلى الله عليه وسلم من الوزغ، وندب أمَّته بعد آلاف السنين إلى قتل الوزغ انتصاراً لأخيه إبراهيم عليه السلام.

فالعلاقة بين الرسل تجاوزت حدّ التشابه الكامل فيما بينهم بجوهر رسالاتهم ومضمونها إلى حدّ الترابط الأخوي فيما بينهم. فالرسل يحبّ بعضهم بعضاً، ويُثني بعضُهم على بعض، ويَقتدي بعضُهم ببعض، ويتألم بعضُهم لألم أخيه، ويحزن لحزنه، ويسعى في نصرته ولو بعدت المسافة بينهم في المكان والزمان، وكذلك يفرح أحدهم لفرح أخيه ويُسرّ بسروره، وهذا ما عَنَيْناه بالوحدة الشعورية بين الرسل. فقول الله تعالى لرسله الكرام: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ يعني أنهم جماعة واحدة تجمعهم رسالة واحدة في جوهرها ومضمونها، كما تجمعهم أحاسيس واحدة ومشاعر واحدة.

فالأمة الواحدة لا تتحقق في جماعة حتى يتّحدوا في تصوّرهم للكون والإيمان والإنسان والحياة، ويتّحدوا أيضاً في مشاعرهم وعواطفهم، أي حتى يحققوا وحدة العقيدة ووحدة الشعور.

❋ ❋ ❋

أمة محمد ﷺ والرسل الكرام؛ أمة واحدة

وكما أراد الله تعالى من الرسل الكرام أن يكونوا أمة واحدة بالمعنى الذي ذكرناه، كذلك أراد الله تعالى من أممهم أن يكونوا معهم أمة واحدة تبعاً لهم.

فأمة محمد ﷺ هي تبع لنبيها ﷺ في الإيمان بجميع الرسل السابقين، وبما جاؤا به من رسالات، كذلك هي تبع لنبيها ﷺ في محبّة الرسل وموالاتهم ومناصرتهم.

قال تعالى مخاطباً الأمة المحمّدية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله

(١) البقرة: ١٣٦.

محمد ﷺ مفصّلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجمَلاً. ونصّ على أعيان من الرسل، وأجمَل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرّقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلّهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾»[1].

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ أحقّ بنبي الله إبراهيم عليه السلام من كل أحد انتسب إليه ثم خالفه في العقيدة ولو كان من قومه المباشرين. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

قال سيد طنطاوي رحمه الله: «صرّح سبحانه ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾. وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ من الحَنَف وهو: ميل عن الضلال إلى الاستقامة، بعكس الجَنَف

(١) تفسير ابن كثير (ج١/ص٤٤٨).

(٢) آل عمران: ٦٧، ٦٨.

فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال، ويقال: تحنّف الرجل أي تحرّى طريق الاستقامة. أي: ما كان إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام يهودياً كما قال اليهود، ولا نصرانياً كما قال النصارى، ولكنه كان حنيفاً أي مائلاً عن العقائد الزائفة متحرّياً طريق الاستقامة، وكان ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: مستسلما لله تعالى منقاداً له مخلصاً له العبادة. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة. ففي هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادّعوا أن إبراهيم كان يهودياً او نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرّأ من ذلك.

قال: ثم أصدر سبحانه حكمه الحاسم العادل في هذه القضية التي كثر الجدل فيها فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿أُولِى﴾ أفعل تفضيل من الولى وهو القرب.

والمعنى: إن أقرب الناس من إبراهيم، وأخصّهم به، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة:

أولهم: بيّنه الله بقوله ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ ليردّ على أقاويل أهل الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهودياً أو نصرانياً.

وثاني هذه الأصناف: بيّنه سبحانه بقوله ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمراد به محمد ﷺ الداعي إلى التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم.

والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به، وللإشعار بأنه ﷺ قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم عليه السلام.

وثالث هذه الأصناف: بينه الله تعالى بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتّبعوه. وفي هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية، وتقرير بأن أتباع محمد ﷺ أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب، لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم، وتركوا الحق جرياً وراء شهواتهم»[1].

وكما كانت أمة محمد ﷺ هي الأحقّ بإبراهيم عليه السلام وغيره من الرسل الكرام من كل أحد

(١) «الوسيط» لسيد طنطاوي (ج١/ ص٢١٥).

انتسب اليهم ثم خالفهم في العقيدة، كذلك كانت أولى بالرسل الكرام من حيث نصرتُهم والاقتداءُ بهم من أممهم الذين خالفوهم.

روى البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ النَّبِي ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ. فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِي ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوا**»(١).

أي لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود فيها يصومون يوم عاشوراء. فسألهم عن سبب صيامهم لهذا اليوم؟ فبيّنوا له أنه في مثل هذا اليوم نجّى الله تعالى موسى عليه السلام وقومه من الغرق، وأغرق فيه فرعون وجنده، فصار موسى عليه السلام يصوم هذا اليوم شكراً لله تعالى على ما امتنّ به عليه وعلى قومه. فعندها أمر النبي ﷺ أمته أن يقتدوا بموسى ويصوموا هذا اليوم، لأنهم أقرب إلى موسى من هؤلاء اليهود الذين حرّفوا دينه، وهم بالتالي أولى بأن يفرحوا لفرحه من اليهود، كما أنهم أولى من اليهود بأن يعبّروا عن شكرهم لله بصوم هذا اليوم اقتداء بموسى عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٦٨٠).

وفي أمر النبي ﷺ أمّته أن يصوموا يوم عاشوراء تجلّى معنى الأمة الواحدة التي تتشارك في أحزانها وأفراحها كما تتشابه في معتقداتها وأفكارها.

وكما كان الحج يمثل العنوان الأكبر الذي تجلّت فيه معاني الأمّة الواحدة من حيث التطابق في العقيدة وأصول الشرائع والأخلاق، كذلك يمثل الحج أكبر عنوان تتجلى فيه معاني الأمة الواحدة من حيث التعاطف والتناصر والتحابّ، سواء بين الرسل أنفسهم أو بينهم وبين أمة محمد ﷺ.

وإليكم بعض الأمثلة على ذلك:

❖ المثال الأول: السعي بين الصفا والمروة:

في السعي بين الصفا والمروة يستشعر الساعي طَيْف هاجر رضي الله عنها وابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام حين تركهما إبراهيم عليه السلام في مكة وحيدَيْن وانصرف عنهما. فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام جَاءَ بِهَاجر وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهي تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِد. وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ،

ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا. فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا. فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ. فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾. وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ـ أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ ـ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا. فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِي. ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا. فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**»

الحديث[١].

إذاً سافر إبراهيم عليه السلام بهاجر رضي الله عنها وبابنها إسماعيل عليه السلام حتى أوصلهما إلى مكة، وذلك قبل أن تُبنى الكعبة فيها أو يسكنها أحد من الناس، فقد كانت صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا بشر. ترك إبراهيم هاجر وابنها الرضيع في مكة ومعهما بعض الطعام والشراب وولى منصرفاً. تعجّبت هاجر من تصرّفه، كيف يتركهما في صحراء موحشة لا شيء فيها، حتى بيّن لها أن الله تعالى هو من أمره بهذا، فعندها اطمأنّت هاجر رضي الله عنها واستراحت. استقبل إبراهيم قبل انصرافه من مكة البقعة التي ستُبنى فيها الكعبة لاحقاً ثم دعا بدعوات مباركات ذكرها الله في القرآن.

وأما قوله في الحديث: «**استقبل بوجهه البيت**» فمراده البقعة التي سيبنى عليها البيت، لأن الكعبة لم تكن قد بُنيت بعد، إذ بناها إبراهيم وساعده على بنائها إسماعيل عليه السلام، فكيف يتسنّى ذلك وقتها وإسماعيل لم يزل طفلاً رضيعاً، كما ورد في آخر حديث ابن عباس ما يؤكد هذا التأويل.

بقيت هاجر مع ابنها الرضيع لوحدهما حتى نفد

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٦٤).

الماء الذي معها وجفّ صدرها، فعطشت وعطش ابنها. رأت ابنها يتلوى من العطش فانطلقت في الأرض كراهية أن تنظر إليه، وجعلت تبحث حولها عن الماء أو عن أحد يساعدها وهي في كرب شديد. وَجَدَت جبل الصفا أقرب شيء إليها فصعدت عليه ونظرت في الوادي أسفله علّها تجد شيئاً يساعدها فلم تجد. ثم نزلت من الصفا وجعلت تمشي في الوادي لتصل إلى الجبل الآخر، وهو جبل المروة. وكانت أثناء مشيها في الوادي تتذكّر ابنها الرضيع الذي يتلوى من العطش فتُسرع خطاها علّها تنقذه قبل فوات الأوان. وصلت إلى الجبل الآخر وهو جبل المروة وارتقت عليه ونظرت حوله فلم تجد شيئاً. عادت أدراجها إلى جبل الصفا ومنه إلى جبل المروة، وهكذا دواليك حتى قطعت المسافة بينهما سبع مرات، حتى أدركها الفرَج من الله تعالى وهي على جبل المروة، بأن أخرج الله لها عين زمزم قريباً منها فشربت وأرضعت طفلها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، أي: أن الله شرع السعي بين الصفا والمروة سبع مرات من أجل قصة هاجر رضي الله عنها. أي من أجل أن يستحضر الناس ذكرى أم إسماعيل وما فعلته من أجل إنقاذ ابنها، فيصعدون في الجبل حيث

صعدت، ويهبطون منه حيث هبطت، ويمشون في الوادي حيث مشت، ويسرعون الخطى حيث أسرعت، يستحضرون المعاناة التي عانتها بكل فصولها ودقائقها، ثم يشربون من ماء زمزم كما شربت، ليتذوّقوا عبر السنين الطوال طعم الفرحة بالفَرَج الذي أدرك إسماعيل وأمّه. وحين يستحضر الناس كل هذه المعاني في مسعاهم بين الصفا والمروة عندها يحققون معنى الأمة الواحدة التي تتشارك في آلامها وهمومها كما تتشارك في آمالها وتطلعاتها مهما طال عليها الزمن أو بعدت بها الجغرافيا.

❖ المثال الثاني: ذبح الأضاحي:

حين يذبح الناس الأضاحي، سواء ذبحوها في الحج أو في بلدهم، فإنهم يستحضرون ذكرى إبراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى أن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وما إن استعدّ إبراهيم عليه السلام لتنفيذ الأمر، حتى نجّى الله تعالى إسماعيل من الذبح وأبدل مكانه كبشاً عظيماً.

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ

أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

يخبرنا الله أن إبراهيم عليه السلام بعد أن أُلقي به في النار وخرج منها سالماً، قرّر الهجرة وترك البلاد، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي إني ذاهب إلى حيث أذن لي ربي بالهجرة إليه حيث أتمكن من عبادته. فذهب إلى بلاد الشام، ودعا ربّه قائلا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي ارزقني أولاداً صالحين. فاستجاب الله تعالى له ووهبه إسماعيل عليه السلام من هاجَر رضي الله عنها. ثم أمر الله إبراهيم بأن يأخذ هاجر وطفلها إلى مكة. ولما كبر إسماعيل وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه رأى فيه هذه الرؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي. فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، وإنما أعلَم ابنَه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمَه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.

---

(١) الصافات: ٩٩ ـ ١٠٦.

فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾[1]. وفعلاً خرج به إبراهيم من حول البيت إلى مِنى وانتهى إلى مكان تجاوز به مكان الجمرات الثلاث، وهناك تلّه للجبين. ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، يعني استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أَمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: صرَعَه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. وأخذ المِدية ووضعها على رقبته وعندها سمع نداء فالتفت، فإذا بكبش أملح[2]، والنداء يقول له: «اترك ذاك وخذ هذا، فترك الولد وذبح الكبش وكانت آية»[3].

إذاً حين يذبح الناس الأضاحي يستحضرون عِظَم التكليف الذي كُلف به إبراهيم عليه السلام في أن يذبح فلذة

(١) مريم: ٥٤، ٥٥.

(٢) **أملح**: فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر.

(٣) «أيسر التفاسير» للجزائري (ج٣/ ص ٣٨١).

كبده، ومع هذا لم يتلكأ لحظة أو يتوانى حتى أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1]، أي: وفّى لربه في كل ما عهد به إليه من التكاليف الشاقة.

كذلك يستحضرون استسلام إسماعيل عليه السلام وطواعيته لربه وأبيه في الأمر العظيم من دون تسخّط أو تبرّم. ثم يستشعرون سعة الفرحة التي غمرت الأب وابنه معا حين نجّى الله تعالى برحمته إسماعيل من الذبح وأبدل مكانه كبشاً عظيماً. وعندها يحققون معنى الأمة الواحدة التي تتشارك بآلامها وهمومها كما تتشارك بآمالها وفرحتها ولو بعد آلاف السنين.

ولما ندب النبي ﷺ أمّته إلى ذبح الأضاحي، كان الصحابة رضي الله عنهم يتطلعون إلى أكثر الكباش شبهاً بكبش إبراهيم ليُضحّوا به من أجل أن يستحضروا تلك الذكرى بأدقّ تفاصيلها.

روى الإمام أحمد أن ابن عباس رضي الله عنه كان يصف لأصحابه الكبش الذي فُدي به إسماعيل فيقول: «**فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا هُوَ بِكَبْشٍ أَبْيَضَ أَقْرَنَ**[2] **أَعْيَنَ**»[3]. ثم قَالَ

(١) النجم: ٣٧.
(٢) أقرن أي: ذا قرن.
(٣) أعين: واسع العين.

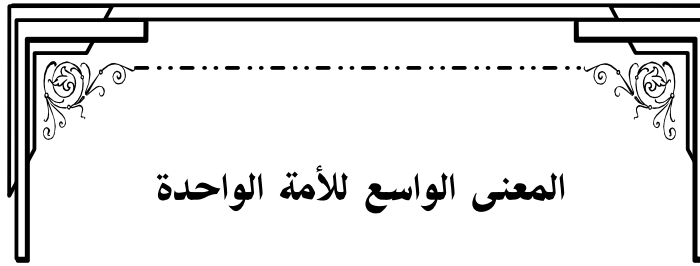
ابْنُ عَبَّاسٍ: لَقَد رَأَيْتُنَا نَتتبع هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْكِبَاشِ»[١]، أي: كناً نبحث عن الكباش التي تشبه الكبش الذي ضحّى به إبراهيم عليه السلام لنضحي بها.

وذكر عبدالرزاق عن معمر عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن عبدالرحمن بن ثوبان قال: «مرّ النعمان بن أبي قطبة على النبي ﷺ بكبش أعين أقرن، فقال النبي ﷺ: «**ما أشبه هذا الكبش بالكبش الذي ذبحه إبراهيم**». فاشترى معاذ بن عفراء كبشاً أقرن أعين وأهداه إلى النبي ﷺ فضحّى به»[٢].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٠٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوي... فذكر حاله وقول الحافظ في التقريب: مقبول، ثم قال: ولمعظم هذا الحديث شواهد وطرق يقوى بها. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (ج٣/ ص٥٧٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٢) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (ج٢٢/ ص٣١).



المعنى الواسع للأمة الواحدة

بعد كل هذا يتبين لنا أن مفهوم الأمة الواحدة لا يقتصر على التشابه بين أفراد الأمة بالعقيدة والتصوّر فقط بل يتعدى ذلك إلى التشارك فيما بينهم بالآلام والآمال.

ولو طبقنا هذا المفهوم على أمة محمد ﷺ اليوم لقلنا: بأن المسلمين لن يكونوا أمة واحدة، ولو كانوا يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد ونبي واحد، حتى يحققوا الوحدة الشعورية فيما بينهم، وأما إذا لم يحققوا هذه الوحدة فليسوا أمة واحدة.

وأضرب مثالاً على ذلك من واقعنا المعاصر:

لما انتفض الشعب السوري المسلم ضد حاكمه الظالم، ساء ذلك كثيراً من دول الكفر فوقفوا مع الحاكم الظالم ضد الشعب السوري، لأنهم لا يريدون لأهل السنة أن يتحرّروا من حكم الأقليات الباطنية خوفاً

من انتشار الإسلام وتوسّعه. بل من هذه الدول من صرّحت على العلن بأنهم لن يسمحوا لأهل السنة أن يحكموا سوريا، وهي روسيا.

ففي هذه الحالة كان من الواجب على أمة الإسلام أن يتكاتفوا فيما بينهم لنصرة الشعب السوري وإعانته على حاكمه الظالم بشتى الوسائل، وعلى حسب قدراتهم. فمنهم من ينصر بماله، ومنهم من ينصر بكلامه، ومنهم من ينصر بدعائه، وعندها يتحقق بينهم معنى الأمة الواحدة التي أرادها الله منا. وأما إذا وجدنا في المسلمين من يقف مع الظالم فيبرّر له ظلمه أو ينصره على المسلمين بنفسه أو بماله، فهذا ليس من الأمة الواحدة. بل أدنى من ذلك، لو وجدنا في المسلمين من يفرح بهزيمة المسلمين أو يحزن لانتصاراتهم، فهذا أيضاً ليس من الأمة الواحدة، ولو كان يتفق معها في الصلاة والصوم والحج والنطق بالشهادتين. لأن انتساب الفرد للأمة لا يكفي فيه أن يؤمن بكل تصوّراتها وعقائدها وشرائعها ثم يكون شعوره مع عدوها وولاؤه لعدوها، فإن من لوازم إيمانه بتصوّرات الأمة وعقائدها وشرائعها أن يكون شعوره معها وولاؤه لها، فاذا كان شعوره مع عدوها وولاؤه

لعدوها فلا شك أن في إيمانه خللاً، ولا يمكن بالتالي احتسابه في عداد الأمة.

وهناك ملاحظة مهمة تستدعي لفت النظر وهي أنه: ليس المقصود من القول بعدم احتسابه في عداد الأمة إخراجه من دائرة الإسلام، أو الحكم عليه بالكفر مطلقاً. لأن الرجل قد يكون ولاؤه لأعداء المسلمين بسبب شبهة عرضت له أو لعارض من خوف أو طمع، وقد يعذره الله يوم القيامة لجهله أو لحسنات عنده مكفّرة. ولكن المقصود بالقول أنه لا يحتسب في عداد الأمة، أي ليس هو في صف المسلمين كما يدلّ عليه ظاهر حاله، بل هو واقف في صف أعداء المسلمين، بغض النظر عن مصيره في الآخرة.

المنافقون في حياة النبي ﷺ كانوا يُعلنون إيمانهم بكل ما جاء به الرسول ﷺ، وكانوا يصلون مع المسلمين ويصومون معهم، ولكن لم يكن شعورهم مع الصحابة، ولا ولاؤهم للصحابة، بل كان شعورهم مع أعداء الصحابة وولاؤهم لأعداء الصحابة، فلم يعدّهم الله تعالى من الأمة.

قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟

وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة أي: جَدْب أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرح المنافقون بذلك**»[2].

فهذه الآية بيّنت أن المنافقين لم يكن شعورهم مع المسلمين بل مع أعداء المسلمين. إذ كانوا يغتاظون إذا انتصر المسلمون على أعدائهم، ويفرحون إذا انتصر أعداء المسلمين على المسلمين، لذلك لم يعدّهم الله من هذه الأمة. قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

قال شيخي أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: «ما زال السياق الكريم في هتك أستار المنافقين وإظهار عيوبهم وكشف عوراتهم ليتوب منهم من أكرمه الله بالتوبة، فقال تعالى عنهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ

---

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) «تفسير ابن كثير» (ج٢/ ص١٠٩).

(٣) التوبة: ٥٦.

لَمِنكُمْ﴾ أي: من أهل ملتكم ودينكم، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي في واقع الأمر إذ هم كفار منافقون. ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: يخافون منكم خوفاً شديداً فلذا يحلفون لكم إنهم منكم لتؤمّنوهم على أرواحهم وأموالهم»[١].

وذكر لنا النبي ﷺ أعمالاً سيقوم بها بعض السفهاء من الأمراء، فانظر بمَ حكم النبي ﷺ على من جارى هؤلاء السفهاء.

روى الامام أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ: «**أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ**». قَال: مَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: «**أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لاَ يَقْتَدُونَ بِهَدْيِي وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي. فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلاَ يَرِدُوا عَلَي حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ وَسَيَرِدُوا عَلَي حَوْضِي**» الحديث[٢].

---

(١) «أيسر التفاسير» للجزائري (ج٢/ ص٨٣).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٤٨١٥)، وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٢٤٢).

إذاً ذكر النبي ﷺ جماعة من الأمراء السفهاء الذين لا يلتزمون بهدي النبي ﷺ ولا يقتدون بسنّته، بل يكذبون في أقوالهم ويظلمون في أحكامهم. ثم حذّر النبي ﷺ أمّته من الوقوف معهم، وبيّن لأمته أن من سيقف معهم في ظلمهم، فيروّج لباطلهم ويُعينهم على ظلم المسلمين فليسوا من النبي ﷺ ولا النبي ﷺ منهم، ولن يردوا حوض النبي ﷺ يوم القيامة حين تَرِده أمّته، أي تبرّأ منهم النبي ﷺ ولم يجعلهم في أمّته حين ترد عليه الحوض.



الخاتمة

ونخلص بعد هذا البيان إلى القول: بأن المسلمين لن يكونوا أمّة واحدة إلا إذا اتّحدوا فيما بينهم بالعقيدة واتّحدوا أيضاً فيما بينهم بالشعور.

وأن الحج هو أكبر عنوان لإظهار اتّحاد الرسل فيما بينهم بالعقيدة، واتّحادهم في الشعور. كما أنه أكبر عنوان لإظهار اتّحاد هذه الأمة مع الرسل الكرام في العقيدة وفي الشعور. وأخيراً هو أكبر عنوان لإظهار اتّحاد هذه الأمة فيما بينها بالعقيدة والشعور.

ودليله ما رواه البخاري ومسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ غَدًا قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمُ الْحُمَّى وَلَقُوا مِنْهَا شِدَّةً. فَجَلَسُوا مِمَّا يَلِي الْحِجْرَ وَأَمَرَهُمُ النَّبِي ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ وَيَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنَتْهُمْ هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا

وَكَذَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الإِبْقَاءُ عَلَيْهِمْ»[١].

فالنبي ﷺ لما اعتمر مع أصحابه رضي الله عنهم عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، وكانت قريش وقتها لا تزال مسيطرة على مكة، ولكن أذنوا للمسلمين بالعمرة بناء على الاتفاق الذي جرى بينهم في الحديبية. وقبل أن يصل المسلمون إلى مكة كان الكفار قد أخلَوْا لهم طرقات مكة، وخرجوا على رؤوس الجبال لينظروا ماذا يفعل محمد ومن جاء معه. وروّج بعضهم شائعات مفادها أن المسلمين صاروا ضعفاء إذ أضعفتهم حمّى يثرب أي المدينة، من أجل الإغراء باستئصالهم.

وقد كانت المدينة كثيرة الحمّى، فلما قدم المهاجرون من قريش وتأثروا بحمى يثرب، دعا النبي ﷺ ربّه بأن ينقل حُمّى المدينة إلى الجُحفة فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ**»[٢]. وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال:

(١) أخرجه البخاري برقم (١٦٠٢)، مسلم برقم (٣١١٨).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٨٨٩)، ومسلم برقم (١٣٧٦).

«رَأَيْتُ كَأَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ حَتَّى قَامَتْ بِمَهْيَعَةَ وَهِيَ الْجُحْفَةُ فَأَوَّلْتُ أَنَّ وَبَاءَ الْمَدِينَةِ نُقِلَ إِلَيْهَا»[١].

والشاهد بالحديث أن النبي ﷺ أراد من أصحابه ألا يُظهروا ضَعْفهم أمام المشركين، لذلك أمرهم أن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأول، والرَّمْل هو الإسراع في المشي مع تقارب الخُطى. فكان الصحابة يرملون من الحجر الاسود إلى الركن اليماني، حيث يراقبهم الكفار، فإذا كانوا بين الركن اليماني والحجر الاسود، حيث لا يتمكن الكفار من مراقبتهم، يمشون ويأخذون نفسهم. ولم يسمح لهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط السبعة كلها إلا شفقة عليهم لشدة إجهادهم. فلما رآهم المشركون على هذه الحال قال بعضهم لبعض: تقولون بأن هؤلاء أنهكتهم حمى يثرب، والله إنهم ليطوفون وكأنهم الغزلان، ما لنا طاقة بمثل هؤلاء. فماتت الشائعة في أرضها ولم يعودوا يطمعون بحرب المسلمين.

والشاهد بالحديث أن الرمل في الأشواط الثلاثة،

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٣٨).

والذي فعله الصحابة في عمرة القضاء من أجل إظهار القوة، بقي سنة معمولاً بها حتى بعد أن تمكّن المسلمون وفتح الله عليهم مكة، وسيبقى سنة معمولاً بها إلى آخر الزمان.

كل ذلك من أجل أن يستحضر آخر هذه الأمة المعاناة التي مرّ بها أول هذه الأمة فيشعروا بهم ويقدّروا جهادهم وتضحياتهم، ويعلموا أن هذا النور لم يكن ليصلنا لولا فضل الله ثم فضل رسوله ثم فضل هؤلاء الكرام فيعرفوا لهم حقهم. وبهذا يتحقّق معنى الوحدة الشعورية في الأمة.

قال ابن دقيق العيد في شرحه لحديث ابن عباس: «وفيه دليل على استحباب الرمل، والأكثرون على استحبابه مطلقاً في طواف القدوم في زمن النبي ﷺ وبعده. وإن كانت العلة التي ذكرها ابن عباس قد زالت، فيكون استحبابه في ذلك الوقت لتلك العلة، وفيما بعد ذلك تأسياً واقتداء بما فُعل في زمن الرسول ﷺ. وفي ذلك من الحكمة: تذكّر الوقائع الماضية للسلف الكرام وفي طيّ تذكّرها مصالح دينية، إذ يتبين في أثناء كثير منها ما كانوا عليه من امتثال أمر الله تعالى والمبادرة إليه وبذل الأنفس في ذلك. وبهذه النكتة يظهر لك أن كثيراً من الأعمال التي وقعت في الحج ويقال فيها إنها

تعبّد[١]، ليست كما قيل. ألا ترى أنا إذا فعلناها وتذكرنا أسبابها: حصل لنا من ذلك تعظيم الأولين وما كانوا عليه من احتمال المشاق في امتثال أمر الله، فكان هذا التذكّر باعثاً لنا على مثل ذلك، ومقرراً في أنفسنا تعظيم الأولين، وذلك معنى معقول[٢]»[٣].

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يوحّد أمتنا عقدياً وشعورياً، وأن يمنّ علينا بالعزّة والنصر والتمكين إنه سميع مجيب.



(١) **أمر تعبّدي**: أي له حكمة ولكن لا نعرفها ولا يمكن إدراكها بالعقل.

(٢) معنى معقول: أي معنى يمكن إدراكه بالعقل.

(٣) «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» (ج١/ ص٣١٦).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الحديث	٧
شرح الحديث	٩
ذكر بعض الأنبياء الذين حجوا	١٣
بناء البيت العتيق	٢١
فوائد الحديث: الأمة الواحدة	٢٨
من مقتضيات الأمة الواحدة: الوحدة الشعورية	٣٦
أمة محمد ﷺ والرسل الكرام؛ أمة واحدة	٤٤
المعنى الواسع للأمة الواحدة	٥٨
الخاتمة	٦٥
الفهرس	٧١

❋ ❋ ❋